مجلة الإحياء، المجلد: 21، العدد: 28، جانفي 2021، ص - ص: 199 – 214
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

مفهوم حاكميّة الكتاب في الخطاب الإلهيّ لأمّتيّ الكلمة والشّهادة: مسارات التّشكّل وسياقات الخطاب- قراءة تدبّرية في القرآن الكريم

The concept of Holy Book-governance in the divine discourse to the nation of the word and al-Shahada: paths of formation and contexts of discourse- A contemplative reading in the Holy Quran

فاطمة الزهراء سعيداني* **أ.د/ قاسم الشيخ بالحاج**
كلية العلوم الإسلاميّة – جامعة الجزائر1
chekhebelhadje@yahoo.fr zawraamaya@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/08/11 **تاريخ القبول: 2021/01/10**

الملخص:
تتناول الدّراسة القراءة التّدبّريّة لمفهوم حاكميّة الكتاب في القرآن الكريم من خلال التّجربة الإيمانيّة الموصولة بمقام الرِّسالة في بني إسرائيل، وكذا التّجربة الإيمانيّة الموصولة بمقام الرِّسالة في أمّة محمّد ﷺ، وذلك باستصحاب ما تختصّ به كلّ تجربة عن الأخرى من حيث مسارات التّشكّل وسياقات الخطاب. وتبدو أهمّية هذه الدّراسة واضحة بالنّظر إلى التّحدّيات التي تواجهها أمّة محمّد ﷺ في سبيل النّهوض بتبعات عالميّة الخطاب القرآنيّ، من خلال تحصيل ثمرة هذا الخطاب في النّفس تحقُّقاً، ثمّ تحصيل بلاغات رسالته تخلُّقاً، على نحو ما يحقِّق للأمّة انبعاثها الشُّهوديّ.

واستدعت هذه القراءة التّدبّريّة تفكيك مسارات تشكّل مفهوم حاكمية الكتاب في كلّ تجربة على حدة من خلال سياق الخطاب القرآنيّ، ثمّ إعادة تركيب هذه المسارات عبر تدبّرها في ظلّ النّاظم الشّموليّ لهذا الخطاب.

وأظهرت نتائج الدراسة أنّ دلالة مفهوم حاكميّة الكتاب في الخطاب الإلهيّ قد تشكّلت وفق منحى شموليٍّ يتناسب مع عالميّة الخطاب القرآنيّ، ووفق نسقٍ معرفيٍّ متفرِّدٍ، من حيث مسارات تشكّله ومن حيث سياقات الخطاب فيه، مشكِّلاً دلالةً متماسكةً بنيويًّا في أبعادها الفكريّة والوجدانيّة والسّلوكيّة.

الكلمات المفتاحية: تدبّر؛ الحاكميّة؛ مسار؛ سياق؛ دلالة

Abstract:

The study deals with the deliberate reading of the concept of divine-governance (al-Hakimiyah) in the Holy Qur'an through the faith experience connected to the message's position to Israelis, as well as the faith experience connected to the message's position in the nation of prophet Muhammad (peace be upon him), and by accompanying what is unique to each experience from the other in terms of the paths of formation and the contexts of discourse. The importance of this study appears clear in view of the challenges facing the nation (Ummah) of prophet Muhammad (peace be upon him) in order to advance the consequences of universality of the Qur'anic discourse, through the achievement of the fruit of this discourse in the soul as a reality, and then transform his message into manners, in a way that achieves the nation's rising to its witness position.

* المؤلف المرسل.

This thoughtful reading necessitated the dismantling of paths that constitute the concept of governance in each experiment separately through the context of the Qur'anic discourse, and then reconstituting these paths through their contemplation under the comprehensive system of this discourse.

The results of the study showed that the significance of the concept of divine-governance (al-Hakimiyah) in the divine discourse has been formed according to a holistic approach commensurate with the universality of the Qur'anic discourse, and according to a unique cognitive pattern, in terms of the paths that shape it and in terms of the contexts of the discourse in it ,where the concept of a ruling is formed structurally in its intellectual, emotional, and behavioral dimensions.

Key words: Contemplate; divine-governance (al-Hakimiyah) ; path; context; indication

مقدّمة:

تمثّل الحاكميّة مفهوما فكريًّا ممتدّ الفروع ومتعدِّد الاتّجاهات، تحكمه الأنساق المعرفيّة التي يتشكّل ضمن وعائها الابستيمولوجيّ، بحيث يتّصل بها اتّصالاً وثيقاً. وفي ظلّ امتداد شبكة الأنساق المعرفيّة المفسِّرة لمفهوم الحاكميّة، فإنّه من الصّعوبة بمكان من النّاحية المنهجيّة:

- نقل هذا المفهوم إلى نسقٍ معرفيٍّ لاحقٍ دون مراعاة النّسق السّابق الذي تشكّلت ضمنه قراءته التّفسيريّة.
- الإلمام بحيثيّات هذا المفهوم ونسق تشكّله، دون فهم شبكة الأنساق المعرفيّة المفسِّرة له وكذا خصائصها ومكمن تميّز كلّ فرعٍ فيها، ومدى تدخّله في تشكيل جانبٍ ما من جوانب هذا المفهوم.

ولاشكّ أنّ وضع هاتين الصّعوبتين المنهجيّتين في الحسبان يمثّل خطوة حاسمة في تشكيل الوعي الحقيقيّ بهذا المفهوم، في ظلّ خصوصيّة نسقه المعرفيّ وجذره اللّغويّ والفكريّ، وبدونها ستأخذ كلّ محاولة تفسيريّة شكلا من أشكال الاعتداء الفكريّ عليه، لأنّها ستسلخه عن سياقه الذي تولّد فيه، وتتسبّب في تضييع حقائقه وتشتيت دلالاته. ذلك أنّنا أمام مفهوم متفرّد، تشكّل عناصر بنيته وحدة منسجمة غير قابلة للتّجزيئ، وإنّ القراءة التّفسيريّة الواعية له تتطلّب تحليله ضمن النّاظم الشّموليّ[1] لنسقه المعرفيّ، وضمن رؤية كلّية من شأنها أن تنتج فهما راشدا له، وتتيح فرصة ثمينة لتوظيفه في أدبيّات الخطاب توظيفا سليما.

وهنا يبرز الخطاب الإلهيّ في القرآن الكريم باعتباره خطابا معجزا وبنية نصّيّة ولغويّة متماسكة الأجزاء، تتشابك مع وعي المخاطَبين لتهيئتهم لفهم مضمونه وبلاغات رسالته، ليمثّل نسقا معرفيّا متميِّزا لتفسير دلالة مفهوم الحاكميّة، من غير تشتيت لحيثيّاته ولا تمزيق لشبكة أنساقه، وهذا بالنّظر إلى منهج هذا الخطاب، والذي يستند إلى الإمكان المعرفيّ للوحي المسطور، ثمّ بالنّظر إلى الطّبيعة المعرفيّة المتفرِّدة لسياقاته، والتي تستوعب التّجربة الإنسانيّة على امتدادها التّاريخيّ. ومن خلال هذه الشّروط، فمن المؤكّد أنّ الخطاب القرآنيّ سينهض بالتّأسيس السّليم لقراءة تفسيريّة واعية لمفهوم الحاكميّة، وسيستمدّ منه هذا المفهوم متانته البنيويّة، وستتحقّق له من خلاله الكفاءة المعرفيّة المرجوّة.

وانطلاقا من هذا الإطار المنهجي، فإنّ هذه الدّراسة تستهدف بالتّحليل مفهوم حاكميّة كتاب الله تعالى بوصفها دلالة على الامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه في مختلف تمثلاتها، من خلال تجربتين إيمانيّتين هامّتين في التّاريخ الإنسانيّ، هما التّجربة الإيمانيّة الموصولة بمقام الرِّسالة في بني إسرائيل، والتّجربة الإيمانيّة الموصولة بمقام الرِّسالة في أمّة محمّد ﷺ. وباستحضار ما تختصّ به كلّ تجربة عن

الأخرى من حيث مسارات التّشكّل وسياقات الخطاب، فإنّهما ستشكّلان مدخلين متميِّزين، يساعدان على استبطان قراءة تدبّريّة ثريّة وغاية في الأهميّة. على أنّ تحصيل ثمار هذه القراءة التّدبّريّة يستدعي تفكيك مسارات تشكّل مفهوم حاكميّة الكتاب في كلّ تجربة على حدة من خلال سياق الخطاب الإلهيّ في القرآن الكريم، ثمّ إعادة تركيب هذه المسارات عبر تدبّرها في ظلّ النّاظم الشّموليّ لهذا الخطاب.

وتكمن أهمّيّة المقاربة التّحليليّة لهذه الدّراسة في كونها تحاول النّهوض برؤية تدبّريّة لكتاب الله المجيد، مستندة إلى النّاظم الشّموليّ لهذا الخطاب المعجز مبنى ومعنى. فهي تندرج ضمن المحاولات التي تسعى إلى تأسيس درس تفسيريّ رائد ومتميّز، يتحقّق في ظلّه الحضور الفعليّ للعقل الإنسانيّ، من خلال اختبار قدرته على التّفاعل مع نسق الخطاب الإلهيّ، ليشكّلا معا دلالة إيمانيّة متجدِّدة لمفهوم تدبّر كلام الله عزّ وجلّ، ترتقي بالإنسان إلى المصافّ الإيمانيّة ثمّ الكونيّة المكافئة لبلاغات رسالة الخطاب الإلهيّ وعالميّتها.

أوّلا: المفاهيم الأساسيّة في الدّراسة:

ترتكز هذه الدّراسة على مفهومين أساسيّين، هما:

1. مفهوم حاكميّة الكتاب:

تأتي مادّة الجذر اللّغويّ (ح ك م) في اللّغة العربيّة غزيرة المعاني، تعود في أصل دلالتها إلى معنى المنع. قال الرّاغب الأصفهانيّ: «حَكَمَ أصله مَنَعَ منعًا لإصلاحٍ، ومنه سمِّيت اللِّجام حَكَمَة الدّابّة، فقيل: حَكَمْتُهُ وحَكَمْتُ الدّابّة منعتُها بالحِكمَة، وأحكَمْتُها جعلتُ لها حَكَمَةً، وكذلك حَكَمْتُ السّفينةَ وأحكمتُهَا...». وقال ابن منظور: «والعربُ تقُولُ: حَكَمتُ وأَحكَمتُ وحَكَّمتُ بمعنى مَنَعتُ ورَدَدْتُ. ومن هذا قيل للحاكم بين النَّاسِ حاكمٌ لأنَّه يمنعُ الظَّالِم من الظُّلمِ...»، ثمّ ذكر عن الأصمعيّ قوله: «... أصلُ الحُكُومة ردُّ الرَّجلِ عن الظُّلمِ، ومنه سمِّيت حَكَمَة اللِّجَامِ لأنّها تردُّ الدَّابَّة...» [2].

وبردّ مصطلح حاكميّة الكتاب إلى هذا المعنى اللّغويّ، يتبيّن وجه ورود معناه في هذه الدّراسة؛ فإنّ الله تعالى إنّما حكّم الكتب السّماويّة بين العباد وردّهم إلى تشريعاتها لردعهم عن ظلم بعضهم البعض، ومنعهم من السّطو على الحقوق بينهم، فجاءت تشريعات الحقّ تبارك وتعالى في كتبه المنزلة على رسله معياراً ضابطًا وحاكماً لمصالح النّاس في الحال والمآل، فلا تصلح أمورهم إلاّ بها، ولا تستقيم حياتهم إلا من خلال الاحتكام إليها، والامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه فيها في مختلف تمثلاتها.

2. مفهوم السِّياق:

تدور مادّة سَاقَ في اللّغة العربيّة حول معانٍ عدّة. قال الزّمخشريّ: «... ومن المجازِ: سَاقَ اللهُ إليكَ خيراً، وسَاقَ إليهَا المهرَ، وسَاقَت الرِّيحُ السَّحابَ... وفُلانٌ في سَاقَةِ العسكرِ: في آخِرِهِ، وتَسَاوَقَت الإبلُ تَتَابَعَت... وهو يَسُوقُ الحديثَ أحسنَ سياقٍ، وإليكَ يُسَاقُ الحديثُ، وهَذَا الكلامُ مَسَاقَةٌ إلى كَذَا، وجِئتُكَ بالحديثِ على سَوْقِهِ: عَلَى سَرْدِهِ...»[3]. وفي المعجم الوسيط: «... سَاقَ الحدِيثَ: سَرَدَهُ وسَلْسَلَهُ... وسِيَاقُ الكلاَمِ: تَتَابُعُهُ وأسلُوبهُ الذِي يجرِي عليهِ»[4].

وعلى هذا فالسّياق بناءٌ متكاملٌ من فقراتٍ مترابطةٍ في علاقتها بأيِّ جزءٍ من أجزائِهِ، أو تلك الأجزاءُ التي تسبقُ أو تتلو مباشرةً فقرةً أو كلمةً معيّنةً[5]، بحيث يؤدِّي هذا البناء معنى ما. فالسّياق على هذا النّحو هو الذي يبرز معنى الوحدة الكلاميّة داخل بنية الخطاب، ويعمل على إبراز نوع العلاقة بين مركّبات الخطاب على نحوٍ يسمح بتحديد دلالته.

فالسّياق إذن يشكّل ما يمكن اعتباره شبكة من العلاقات الدّاخليّة بين مركّبات الخطاب، بحيث يكون لكلّ مركّبٍ فيه كيانُهُ المعنويّ وشخصيّته الدّلاليّة ضمن نطاق الكلّ. فإذا أُخرِج المركّب عن نطاق هذه الشّبكة، رجعت إليه خصوصيّة المعنى. ومن ثَمَّ فإنّ للسِّياق دوراً فعالاً في تواصليّةِ الخطابِ وفي انسجامِهِ بالأساس، وما كان ممكناً أن يكون للخطابِ معنىً لولا الإلمامُ بسياقِهِ[6].

ومن خلال ما سبق يتبيّن لنا أنّ توظيف الجذر اللّغويّ (ح ك م) وما اشتقّ منه لا ينصرف إلى معنى من المعاني بعينه مباشرة، وإنّما يستند إلى السّياق الذي ورد فيه، فهو المحدِّدُ لدلالة هذا الجذر والضّابطُ لمعناه، بحيث يحول دون إطلاق مختلف المعاني المنبثقة عنه على عواهلها.

والخلاصة أنّ الكشف عن شبكة العلاقات الدّاخليّة بين مركّبات الخطاب الإلهيّ في القرآن الكريم لأمّتي الكلمة والشّهادة هو الذي سيمكّن من إبراز المعاني المتصلة بمفهوم حاكميّة الكتاب، وسيشكّل خطوة جوهريّة في فهم بنية هذا الخطاب وتدبّر بصائره واستيعاب خصائصه وتذوّق دلالته.

ثانيا: مسار تشكّل مفهوم حاكميّة الكتاب عبر مقام الرّسالة في بني إسرائيل:

تتأسّس دلالة مفهوم حاكميّة كتاب الله تعالى وفق نسقٍ معرفيٍّ، يستوعب التّجربة الإيمانيّة الخاصّة بمقام الرّسالة في بني إسرائيل على امتدادها التّاريخيّ، وهي تجربة محكومة بعهد الشّريعة الذي عهد الله به إليهم بكلمته في التّوراة والإنجيل، لأعظم نبيّين من أنبيائهم وهما موسى الكليم عليه السلام وعيسى عليه السلام كلمة الله إلى مريم الصّدّيقة، ومن هنا اصطلح على تسمية بني إسرائيل بـ "أمّة الكلمة". يقول الحقّ تبارك اسمه: (قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) (الأعراف: 144)، ويقول كذلك: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ) (طه: 11- 13)، ويقول سبحانه: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) (آل عمران: 45).

إذن فتشكّل هذه التّجربة الإيمانيّة اتّصل اتّصالاً مباشراً بالعلاقة مع الله عزّ وجلّ، كما أنّ سياق الخطاب التّشريعيّ لهذه التّجربة ارتبط ارتباطاً مباشراً بحصريّة النّداء، الذي اصطبغ بصبغة التّفضيل الإلهيّ. يقول الحقّ جلّ شأنه: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) (البقرة: 47).

وقد تميّز المنهج الإلهيّ في جذب بني إسرائيل نحو سلطة حاكميّة الكلمة في التّوراة والإنجيل بخرق النّظم الكونيّة في كلّ مرّة. يقول الله تعالى: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) (البقرة: 50)، ويقول سبحانه: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ) (البقرة: 57)، ويقول أيضا: (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (آل عمران: 49).

ومن خلال الميزة ذاتها ألزم الحقّ تبارك وتعالى بني إسرائيل بسلطة تشريعاته عزّ وجلّ. يقول جلّ جلاله: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: 63).

وبالعودة إلى معطيات التّجربة الإيمانيّة لبني إسرائيل في مصر، ينكشف سرّ تشكّل هذه التّجربة في ظلّ الارتباط بالخوارق؛ ذلك أنّ «الاستعباد الطّويل والذُّلّ الطّويل في ظلّ الفرعونيّةِ الوثنيّةِ كان قد أفسدَ طبيعةَ القومِ، وأضعَفَ استعدادهم لاحتمالِ التّكاليفِ والصّبرِ عليهَا، والوفاءِ بالعهدِ والثّباتِ عليهِ، وترك في كيانِهِم خلخلةً واستعداداً للانقيادِ والتّقليدِ...»[7]. ومن شأن هذه العوامل أن تقف عقبة كؤودا في وجه استجابتهم لسلطة كلمات الله في كتبه، وحملهم على التّسليم بها والاحتكام إليها.

ولقد أشربت قلوب بني إسرائيل هذا المنهج في السّياسة بحاكميّة الكتاب على نحوٍ منحرفٍ، ظهرت آثاره على ذهنيّات القوم وعلى مسالكهم في الاستجابة لأوامر الشّريعة التي نيطت بهم. ولعلّ أبرز ذهنيّة اختصّوا بها هي نسبة الفضل في ما جعلهم الله فيه إلى ذواتهم، وليس إلى تفضيلٍ من مصدرٍ خارجٍ عنهم. يقول الحقّ جلّ جلاله حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ (البقرة: 111)، ويقول كذلك: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة: 18)، يقول الله سبحانه وتعالى حكاية عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص: 78). وانطلاقا من هذه الذّهنيّة فقد بدأت التّشوّهات المفاهيميّة تتسلّل شيئا فشيئا إلى دلالة الكلمة الإلهيّة، وإلى القيم الضّابطة لحاكميّة الوحي المسطور في التّوراة الإنجيل.

قال الشّوكاني في تفسيره: «أثبَتَت اليَهودُ لأنفسِهَا ما أثبتتهُ لعزيرٍ، حيثُ قالُوا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التّوبة: 30)، وأثبَتَت النَّصارَى لأنفسِهَا ما أثبتتهُ للمسيحِ، حيثُ قَالُوا: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التّوبة: 30)... أي: نحنُ أتباعُ أبناءِ اللهِ. وهكذا أَثبتُوا لأنفسِهِم أنَّهُم أحبَّاءُ الله بمجرَّدِ الدَّعوى الباطِلَة والأمانِي العاطِلَة»[8]، وقال الخازن في تفسيره: «وجملةُ الكلامِ في ذلك أنَّ اليهودَ والنَّصارَى كَانُوا يرون لأنفسِهِم فضلاً على من سِواهُم، بسببِ أسلافِهِم الأفاضِل، حتَّى انتهَوْا في تعظِيمِ أنفسِهِم إلى أن قَالُوا: نحنُ أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤُهُ...»[9].

وأمام التّعنّت والصّلف اللّذين واجه بهما بنو إسرائيل مسلك حاكميّة الكلمة الإلهيّة في التّوراة والإنجيل وصبغة التّفضيل المنبثقة عنها، حسم الخطاب الإلهيّ القيم الضّابطة لهذا المفهوم، وكشف التّشوّهات التي مسّته، من خلال وضعها موضع الفحص والمساءلة. وسنستصحب قول الحقّ جلّ شأنه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: 48)، لاستبطان خطاب الفحص والمساءلة بدلالة محدِّدين منهجيّين اثنين، تضمّنتهما هذه الآية، يتعلّق أحدهما بجانب تصديق القرآن الكريم لكلمات الله في التّوراة والإنجيل، ويتعلق ثانيهما بجانب هيمنته عليها.

وفي بيان معنى هذين المحدّدين قال أبو السّعود في تفسيره: «﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ حالٌ من الكتابِ، أي حالَ كونِهِ مصدِّقاً لما تقدَّمَهُ، إمَّا من حيثُ إنَّهُ نازلٌ حسبما نُعِتَ فيه، أو من حيثُ إنَّهُ موافقٌ له في القصصِ والمواعِيدِ والدَّعوةِ إلى الحقِّ والعدلِ بين النَّاسِ والنَّهيِ عن المعاصِي والفواحِشِ...»[10].

وقال ابن عطيّة الأندلسيّ بعد أن ساق جملةً من أقوال العلماء في بيان قول الله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: «ولفظة المهيمِنِ أخصُّ من هذِهِ الألفاظِ، لأنّ المهيمِنَ على الشَّيءِ هو المعنِيُّ بأمرِهِ، الشَّاهدُ على حقائقِهِ، الحافظُ لحاصلِهِ ولأن يدخُلَ فيهِ ما ليس منهُ... والقرآنُ جَعلهُ الله مهيمِناً على الكتبِ: يَشهدُ بما فِيهَا من الحقائِقِ وعلى ما نسبَهُ المحرِّفونَ إليها، فيصحِّحُ الحقائِقَ ويُبطِلُ التَّحريفَ...»[11].

1. فحص التّشوهات التي مسّت مفهوم حاكميّة الكتاب بدلالة تصديق الكتاب في القرآن الكريم:

تكتسي المعاني التي دلّ عليها خطاب تصديق الكتاب في القرآن الكريم أهمّيّة بالغة، من حيث إنّها تمكّننا من كشف التّشوّهات التي مسّت مفهوم حاكميّة الكتاب، أي التّوراة والإنجيل، على مستوى الدّينونة لها والتّسليم بها. ويتأتّى ذلك عبر استرجاع تفاصيل التّجربة الإيمانيّة لبني إسرائيل من خلال سياق تشكّلها، انطلاقاً من مقام الرّسالة في هذه التّجربة، فهو مصداق كلمات الله تعالى لهم.

لقد حسم الخطاب الإلهيّ في المرحلة الأوّلى القيم الضّابطة للدّينونة لحاكميّة كلمات الله تعالى في كتبه والتّسليم بها، بردِّها إلى مصدرها المطلق شِرعةً ومنهَاجاً وهو الله تعالى: (وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (البقرة: 132)، ثمّ بردِّها إلى ينبوعها الأوّل تسليماً وامتثالاً، وهو مقام خليل الله إبراهيم ﷺ، فلقد كانت ملّته أقوم سبل الدّينونة لله تعالى والتّسليم بكلماته، وكان إسلامه عليه الصّلاة والسّلام متابعةً وانقياداً باللّسان والقلب[12]: (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (البقرة: 130، 131).

وبالنّظر إلى ما تقدّم تقريره، انتقل الخطاب الإلهيّ في المرحلة الثّانية إلى بيان منشأ فساد أصل التّديّن في بني إسرائيل، وهو صبغهم له بشبهة الاصطفاء الذّاتيّ: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (البقرة: 135).

ثمّ جاءت المرحلة الثّالثة لتزيد من المعاناة النّفسيّة للمخاطَبين، بانتقال الخطاب الإلهيِّ إلى مساءلة مصدر دعوى القوم في أصل التّديّن وشبهة الاصطفاء اللّذين استحدثوهما. قال الحقّ تبارك اسمه: (وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: 111)، وقال أيضا: (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة: 140)، وقال سبحانه: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (المائدة: 18).

وتحت وطأة هذا الحصار المطبق، يتهيّأ المقام للمرور إلى المستوى الثّاني من مستويات فحص التّشوّهات التي مسّت القيم الضّابطة لدلالة حاكميّة كلمات الله لبني إسرائيل في التوراة والإنجيل.

2. فحص التّشوّهات التي مسّت مفهوم حاكميّة الكتاب بدلالة هيمنة الكتاب في القرآن الكريم:

تمكّننا معاني هيمنة الكتاب التي ذُكِرت آنفا من كشف التّشوّهات التي مسّت مفهوم حاكميّة الكتاب على مستوى الامتثال، وذلك عبر استبطان مسارات الخطاب التّشريعيّ الموصول بمقام الرِّسالة في بني إسرائيل، والذي ارتبط بالنّداء الحصريّ: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ...). وبالعودة إلى السّياقات المتنوّعة لهذا الخطاب، يتبيّن أنّ مسارات التّشوّهات في هذا المستوى تلتقي عند حدود فساد أصل الباعث على الامتثال لكلمات الله وهو القلب، ونكوصه عن سلوك مسلكها.

يقول الحقّ تبارك وتعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) (البقرة: 87، 88)، ويقول جلّ شأنه: (وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ

الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (البقرة: 92، 93).

ولقد تضمّن سياق الخطابين لفظتين ذواتيّ دلالتين محسوستين، استعيرتا للتّعبير عن حالتين معنويّتين، وهما لفظتا: (غُلْفٌ) و(أُشْرِبُوا)؛ فلقد استعيرت لفظة (غُلْفٌ) من صورة الغطاء الذي يحيط بالشّيء ويُحكِم تغليفه، فلا يُوصَل إليه، وكذلك القلب الأغلف، فكأنّما أغشِيَ غلافاً، فهو لا يعي ما يُلقَى إليه من الكلام. بينما استعيرت لفظة (أُشْرِبُوا) من هيأة البعير الذي يُشدُّ عنقُهُ بحبلٍ محكمٍ، لا يستطيع منه فِكاكاً[13]، وكذلك بنو إسرائيل من فرط شغفهم بعجل الذّهب، فكأنّما شُدَّت قلوبهم إليه بحبل متين. وكلا الصّورتين تعبيرٌ عن مشهد من مشاهد ركون القلب إلى الشّهوات والشّبهات، التي تفسِد بتواترها عليه مسلكَهُ ناحية ما يلقى إليه من كلمات الله، وتطمس فيه الدّاعي إلى الامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه.

ثمّ إنّ وضع هاتين الاستعارتين في إطار النّاظم الشّموليّ للخطاب الإلهيّ بدلالة هيمنة الكتاب، يكشف عن مسار فساد أصل الباعث على الامتثال لكلمات الله، وهو المسار الذي كان أكثر المحاور استئثاراً بالحجاج في القرآن الكريم، تماشيا مع ما أنكره القوم من شريعة الله التي أمروا بالأخذ بها، ومع ما أحدثوه في دينهم ممّا نهوا عنه ولم يؤمروا به.

وتثبيتاً لدعائم منحى الفحص والمساءلة، فقد ورد التّنبيه إلى النّبيّ محمّد ﷺ مرّتين متتاليتين، بأن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله، مصاحباً ذلك بالحذر من مغبّة اتّباع أهوائهم، فهي سبب التّلبيس على قلوبهم في عدم الامتثال لكلمات الله. قال الحقّ عزّ شأنه: (فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ) (المائدة: 48)، ثمّ قال سبحانه وتعالى بعدها: (وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ) (المائدة: 49).

ومحلّ التّلبيس في هذا الموضع هو ما بيّنته الآية التي سبقت هذين السّياقين في قول الله تعالى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (المائدة: 41)، فالقلب الطّاهر هو أوّل المنازل التي يتعلّق بها داعي الله إلى الامتثال لمقتضى كلماته والاستجابة لأوامره ونواهيه.

وبوضع مسار تشكّل مفهوم حاكميّة الكتاب الموصول بمقام الرّسالة في بني إسرائيل ضمن إطار النّاظم الشّموليّ لحدّيّ تصديق الكتاب وهيمنة الكتاب، يبرز قول الله تعالى: (فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ) (المائدة: 48)، باعتباره المعيار الضّابط الذي يضع مفهوم حاكميّة الكلمة الإلهيّة، أي الوحي المسطور، موضع التّنفيذ بردّه إلى مصدره المطلق وهو الله تعالى، ثمّ بردّه إلى أصل الباعث على الامتثال وهو طهارة القلب.

وعند حدود هذا المعيار الضّابط فقط يستقيم مسلك التّلقّي لكلمات الله تعالى في التّوراة والإنجيل، وهو المسلك الذي عبّر عنه الخطاب الإلهيّ بلفظة (يُمَسِّكُونَ)، في قوله تعالى: (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) (الأعراف: 169، 170)[14].

وبالنّظر إلى سياق الخطاب في كلّيّته، فإنّ الفعل (يُمَسِّكُونَ) له وقعه الشّديد والمحسوس ولا شكّ؛ ذلك أنّه «يصوِّرُ مدلولاً يكاد يُحَسُّ ويُرَى... إنَّها صورة القبضِ على الكتاب بقوَّةٍ وجدٍّ وصرامةٍ...

الصُّورة التي يحبُّ الله أن يُؤخَذَ بها كتابُهُ وما فِيهِ، في غير تعنُّتٍ ولا تنطُّعٍ ولا تزمُّتٍ...»[15]، وبخاصّة في سياق الانتقال إلى بيان مسار تشكّل مفهوم حاكميّة الكتاب في ظلّ التّجربة الإيمانيّة لأمّة محمّد ﷺ، في ظلّ دلالتين اختصّت بهما، نقلتاها إلى مستوى الشّهادة على الأمم.

ثانيا: مسار تشكّل مفهوم حاكميّة الكتاب عبر مقام الرّسالة في أمّة محمّد ﷺ:

يستوقفنا هذا المبحث عند قول الحقّ تبارك وتعالى: (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) (البقرة: 136- 138).

حيث تمثّل هذه الآيات المباركات الأساس الذي تتموضع من خلاله دلالة مفهوم حاكميّة كتاب الله تعالى وفق نسقٍ معرفيٍّ يستوعب التّجربة الإيمانيّة لأمّة محمّد ﷺ، ويضعها على الخطّ القويم الذي حادت عنه أمّة الكلمة، وهو خطّ الحنيفيّة الإبراهيميّة. كما تكشف هذه الآيات عن بنائيّة هذا المفهوم في ظلّ قوله تعالى: (صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ) (البقرة: 138)، والتي حسمت دلالته كليًّا في مستوييها الوجدانيّ والسّلوكيّ.

فقوله تعالى: (صِبْغَةَ اللَّهِ) أي فطرة الله، وهي بدلٌ من قوله تعالى: (قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ) (البقرة: 135)[16]. وأُرِيدَ بها التّطهير بالإيمان وفق الملّة الحنيفيّة. وفيها «ردٌّ على اليهود والنَّصارَى معاً بأنَّ صبغَةَ الإسلامِ الاعتقادُ والعملُ المشارُ إليهما بقوله: (قُولُوا آمَنَّا) إلى قوله: (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)، أي إن كَانَ إيمانُكُم حاصلاً بصِبغةِ القِسِّيس، فإيمانُنَا بصبغِ الله وتلوينِهِ، أي تكييفِهِ للإيمانِ في الفطرةِ مع إرشادِهِ إليهِ»[17].

إذن فهذا الخطاب في كلّيّته يستهدف تشكيل دلالة مفهوم حاكميّة الكتاب وفق مسارٍ متجاوزٍ لما أسميناه قبلا بصبغة التّفضيل، والتي ارتبطت في أمّة حاكميّة الكلمة بخوارق نظم الكون، ليحلّ محلّه مسار تشكّلٍ جديدٍ بدلالة "صبغة الفطريّة" وفق مسلكين اثنين:

1. مسار تشكّل مفهوم حاكميّة الكتاب بدلالة مسلك العبديّة:

ويقصد بهذا المسلك تشكيل وعي الإنسان باعتباره عبدا لله وحده وخلقا من مخلوقاته؛ حيث يقف الخطاب القرآنيّ في سياقاتٍ عديدةٍ بالفطرة الإنسانيّة في مواجهة فطرة الكون، بهدف استرجاع حقيقة التّوحيد والعبوديّة في الكينونة الإنسانيّة، والتي تماثل حقيقة التّوحيد والعبوديّة في الكون برمّته. يقول الله تعالى: (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) (آل عمران: 83)؛ فالإقرار الكونيّ بالإسلام لله في هذه الآية يماثل الإقرار البشريّ بالإسلام في الآية السّابقة: (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (البقرة: 136).

إذن ومن خلال هذا المسار في تشكيل وعيٍ إنسانيٍّ بالكون، معادلٍ في بنائيّته للوعي الكونيّ، فإنّ مسلك ربط الإنسان بخوارق النّظم الكونيّة لدفعه إلى الامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه، على نحو ما جرى به العهد في بني إسرائيل لن يجد مبرّره؛ ففي سياق تشكّل التّجربة الإيمانيّة لأمّة محمّد ﷺ، غدت مظاهر الكون مناطاً لفهم حقيقة التّوحيد الكامنة فيه وفي تفاصيل حركته. يقول الحقّ تبارك وتعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (الحجّ:

18)، ويقول سبحانه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) (النّور: 41).

وجاءت دلالة فعل الرّؤية في الآيتين ومثيلاتهما للإشارة إلى أنّ مظاهر الكون صارت محلاً للعناية بحال المنظور إليه، من أجل الاعتبار بدقائقِ خلقه، ولم تعد محلاً للعناية به من أجل جذب المكلّف لحاكميّة التّشريع الإلهيّ وإخضاعه لها.

وهذا التّحوّل الجذريّ في العلاقة بين الطّبيعة والإنسان، من حالة الإخضاع إلى حالة التّفاعل، يمثّل قمّة الوعي بالعلاقة البنائيّة التي تربط الطّرفين معاً، ثمّ بالعلاقة البنائيّة التي تربطما معاً بالخالق سبحانه وتعالى، حيث تتموضع بصورةٍ مشرقةٍ على مسلك العبديّة لله تعالى.

فحين يضع الإنسان علاقته بالكون على خطّ الاعتبار، فإنّ القيم الضّابطة لمفهوم حاكميّة كتاب الله تعالى، أي الوحي المسطور تنتقل من مستوى ضاغط بدلالة الإخضاع الكونيّ، إلى مستوى تفاعليّ واعٍ بدلالة صفة العبديّة. ونتيجة لذلك فسترتبط قيمة التّشريع في تحديد العلاقة بين الله تعالى والإنسان ببنائيّة الحقّ الذي خلق الله تعالى بموجبه الوجود. وبموجب هذه العلاقة سيتموضع الفعل الإنسانيّ على خطّ العبديّة في إطار ناظمٍ شموليٍّ يكافئ في شموليّته عبوديّة الكون لله، و«بقدر ما تتحقَّقُ للإنسان علاقةُ البنائيَّةِ الكونيَّةِ بِهِ بوصفِهِ مركزها، تتحقَّقُ له معرفةُ علاقتِهِ بالله؛ فمفهومُ علاقةِ الإنسانِ بالله تمرُّ عبر علاقةِ الإنسانِ بالكونِ، والمفهومُ المتولِّدُ هنا هو نفسُهُ الذي يسقطُ هناك، فكيفما عرفنا علاقتنا مع كوننا، عرفنا علاقتنا مع ربِّنَا، فتحقَّقَت عُبوديَّتُنا له»[18].

وههنا يظهر وجه ربط أمّة محمّد ﷺ في خطّ سيرها إلى الله بالحنيفيّة الإبراهيميّة؛ فقد تحقّقت للخليل عليه السلام علاقته البنائيّة بالوجود في جميع مظاهره على أكمل أوجهها. قال الله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (الأنعام: 75)، ومن خلال إسلامه تجلّت أسمى مظاهر صفة العبديّة: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (البقرة: 131).

وههنا يكمن تميّز مسار تشكّل مفهوم حاكميّة كتاب الله تعالى في أمّة محمّد ﷺ بدلالة صفة العبديّة؛ فإنّ هذه الأخيرة لم تقتصر على استيعاب الوجود برمّته في جانبيه المادّي والتّاريخيّ فحسب، بل استوعبته كذلك عبر امتداده الغيبيّ[19]، فتحوّل مسار تشكّل هذا المفهوم من دلالة قهريّة ضاغطة إلى دلالة بنائيّة تفاعليّة متجاوزة، وانتقل الخطاب الإلهيّ من سياق النّداء الحصريّ: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ...) إلى سياق النّداء الإنسانيّ العالميّ: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (الأعراف: 158).

وباكتمال نسق تشكّل مفهوم حاكميّة الكتاب بدلالة مسلك العبديّة، يتهيّأ المقام للانتقال إلى المسلك المكمِّل له.

2. مسار تشكّل مفهوم حاكميّة الكتاب بدلالة مسلك التّلقّي:

ويقصد بهذا المسلك تشكيل فعل الإنسان انطلاقا من كونه محكوما بتلقّي التّشريعات الكلّيّة الضّابطة لهذا الفعل من الله تعالى وحده؛ حيث ترتبط المفاهيم المؤسِّسة للقيم التّشريعيّة في أمّة محمّد ﷺ ارتباطا وثيقا بالحنيفيّة الإبراهيميّة، باعتبارها المدرسة التي تجتمع عندها قيم الفطريّة كلّها، فبهذا المعنى تحقّق للخليل عليه السلام وصف الأمّة: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

(النّحل: 120- 122). ومن هذا المنطلق فقد ارتبط مسار تشكّل مفهوم حاكميّة الوحي المسطور في الجانب المكمّل لمسلك العبديّة بـ"مسلك التّلقّي" عن الله تعالى، وفق ما جرى به العهد في الحنيفيّة الإبراهيمية: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (النّحل: 123).

إنّ مسار تشكّل مفهوم حاكميّة الكتاب بدلالة مسلك التّلقّي في التّجربة الإيمانيّة لأمّة محمّد ﷺ يقع بين حدّين ضابطين، جُمِعا في قوله عزّ وجلّ: (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (29) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (الرّوم: 29- 32)؛ فالحدّ الأوّل يتعلّق باتّباع الهوى المضلّ عن صراط كلمات الله في كتابه المجيد، والحدّ الثّاني يتعلّق باتّباع الشّبهات المشوّهة لمقتضى الوحي في هذا الكتاب، والحدّان معاً يرتبطان بالنّكوص عن مسلك العبديّة لله تعالى.

إذن فتشكّل مفهوم حاكميّة كتاب الله عزّ وجلّ يمرّ حتما عبر إقامة الوجه للحنيفيّة السّمحة، والإنابة لمصدر التّلقّي إنابةً مخلصةً، لا تشوبها شائبةٌ من هوى مُضِلٍّ أو شبهةٍ مُطغِية، وهذا هو مقتضى دلالة الفطريّة. فهي من حيث إقامة الوجه للحنيفيّة «دائرةٌ من حيث المنهج على تلقّي رسالاتِ القرآنِ من خِلاَل تلقّي آياتِهِ كلمةً كلمةً، ومكابدَةِ حقائِقِهِ الإيمانيَّةِ منزلةً منزلةً، إذ لا تخلُّقَ للنَّفسِ إلاَّ بمعاناةٍ، ولا تخلُّصَ لَهَا من أهوائِهَا إلاَّ بمجاهدةٍ. فالقرآنُ هو خطابُ الفِطرةِ من حيث هي راجعةٌ إلى إقامَةِ الوجهِ للدِّينِ: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الرّوم: 30). وقد كانَ ذلكَ -منذُ كانَ- بتلقّي آياتِ القرآنِ، وما تجدَّد قطُّ في التَّاريخِ إلاَّ بتجديد التَّلقّي لها بناءً وتربيةً وتثبيتاً على مكثٍ من الزَّمَان...»[20].

ويأتي سياق الخطاب الإلهيّ ليؤكّد أنّ التّحوّل الحاصل على مستوى تشكّل مفهوم حاكميّة القرآن الكريم بدلالة مسلك العبديّة ثمّ بدلالة مسلك التّلقّي، لم يكن مجرّد تحوّلٍ من صبغة إلى أخرى بمقتضى الأمر الإلهيّ فحسب، ولكنّه تحوّلٌ يجد جذوره في الكينونة الإنسانيّة التي انضبطت صلتها بعالم الغيب بضابط اليقين لا غير: (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (المائدة: 50). وعندها ستجد كلمات الله عز وجلّ مصداقها في فؤاد المتلقّي وفي جوارحه، وستتحقّق لمفهوم حاكميّة كتاب الله تعالى دلالة الجاذبيّة الرّوحيّة بمقتضى اليقين، ودلالة الامتثال بمقتضى التّسليم، والدّلالتان معاً هما ثمرة مسار إعادة المتلقّي إلى سلوك مسلك الحنيفية الإبراهيميّة.

ثالثا: تشكيل المدارات الإيمانيّة للاستجابة لحاكميّة الكتاب في أمّة محمّد ﷺ:

أمام التّشوّهات المفاهيميّة التي مسّت دلالة الكلمة الإلهيّة على مستوى القيم الضّابطة لحاكميّتها، بفعل الانزلاقات الخطيرة التي عصفت بمقام الرّسالة الموصول ببني إسرائيل، والتي حادت بهم عن تعهُّدِ كلمات الله، يقف الخطاب الإلهيّ في مقام الرّسالة الموصول بسيّدنا محمّد ﷺ عند حدود تمثّلات مسلكيّ العبديّة والتّلقّي، ليعيد تشكيل المدارات الإيمانيّة للاستجابة لحاكميّة كتاب الله، والتي ستضع أمّة محمّد ﷺ في مستوى الشّهادة على الأمم، وذلك من خلال تحصين خطِّ سيرها وضبط بوصلة مقاصدها وغاياتها على منهج صبغة الله، لتحقيق الغاية الإلهيّة: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ) (البقرة: 143)، فتكون بذلك أهلاً لحمل صفة "أمّة الشّهادة".

وتتأسّس المدارات الإيمانيّة للاستجابة لحاكميّة كتاب الله تعالى في أمّة الشّهادة على دلالتيّ الجاذبيّة الرّوحيّة والامتثال، واللّتان تتضمّنان «حقائِقَ الإيمانِ المقصُودَةِ بالتَّخلُّق والتَّحقُّقِ، في طريق الدَّعوةِ والسَّيرِ إلى الله صلاحاً وإصلاحاً. فَمَنْ قَرأَ سورة الإخلاَصِ ولم يتخلَّقْ بالإخلاَصِ ولا هو تحقَّقَ بِهِ، فمعناهُ أنَّهُ لم يتلقَّ سورة الإخلاصِ... وإنَّمَا يُؤتِي القرآنُ ثمارَ الذِّكرِ حقيقةً لمن تَلقَّاهُ... ولا يزالُ القرآنُ معروضاً لمن يَتلقَّاهُ، وليس لمن يتلُوهُ فَقَط...»[21].

وبالتّالي فهذه المدارات الإيمانيّة تمثّل مقام اختبارٍ حاسمٍ لمدى الاستجابة لحاكميّة كتاب الله تعالى المجيد، وفق ما يقتضيه مسلكا العبديّة والتّلقّي، حيث تضع الجماعة المؤمنة أمام فرصة إدراك بلاغات رسالته.

وبالعودة إلى سياقات الخطاب الإلهيّ في القرآن الكريم، يبرز لنا مساران اثنان، تشكّلت بمقتضاهما هذه المدارات الإيمانيّة، وهما:

1. مسار المكاشفة:

وهو المسار الذي اعتنى فيه الخطاب الإلهيّ بكشف مظاهر التّعدّي على أحكام الله تعالى، وتشكيلِ الوعي بتبعات عدم الاستقامة عليها والامتثال لها من طرف بني إسرائيل. يقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (آل عمران: 23)، ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (النّساء: 51)، ويقول أيضا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ (غافر: 69).

إنّ ما ذُكِر في هذه الآيات من مظاهر انحراف بني إسرائيل عن الامتثال لكلمات الله تعالى تحقُّقاً وتخلُّقاً، بسبب إعراضهم عن كتاب الله تعالى واستنكافها عن الحكم بكلماتِهِ، يضعهم ولا ريب على الخطِّ النَّقيض لمسلكيّ العبديّة لله تعالى وتلقّي كلماته، فوجب الوعي بها للنّأي عنها.

ثمّ ينتقل الخطاب الإلهيّ بوعي الجماعة المؤمنة إلى تبصّر دلالتيّ الجاذبيّة الرّوحيّة والامتثال عند مواجهة تبعات طريق الدّعوةِ إلى الله، فهما عماد مدارات الاستجابة لكلمات الله تعالى. يقول الله تعالى مخاطباً نبيّه الكريم ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (41) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: 41، 42)، ويقول سبحانه وتعالى مخاطباً الفئة المؤمنة: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 75، 76).

2. مسار التّحصين:

وهو المسار المكمِّل لفعّاليّة مسار المكاشفة في تشكيل المدارات الإيمانية للاستجابة لحاكميّة كتاب الله تعالى، من حيث إنّه عني بتثبيت دعائم مسلكيّ العبديّة والتّلقّي في وعي أمّة الشّهادة، من خلال

استهداف تحصين محلّ الباعث على السّير عليهما، وفق منهج الخطاب ذاته الذي وُظِّف في تشكيل دلالة مفهوم حاكميّة الكتاب في بني إسرائيل، أي باستصحاب تفاصيل التّجربة الإيمانيّة لأمّة الكلمة.

حيث يقف الخطاب الإلهيّ في القرآن الكريم عند حدود دلالات مسلك العبديّة لله تعالى بتحصين دعائمه، وذلك باستهداف محلّ الباعث على السّير عليه وهو القلب. يقول الحقّ تبارك اسمه: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد: 16). وهذه الآية في دلالتها امتدادٌ لدلالة سورة الحديد برمّتها، وهي تحقيق حقيقة الإيمان في النّفس، وصولاً إلى تحقيق أخلاق الإيمان في السّلوك[22].

فبوضعها في سياق النّاظم الشّموليّ للخطاب الإلهيّ في السّورة، فإنّ أسلوب الخطاب في قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْنِ) سيكون ذا أثر عميق في تحقيق معنى التّوبيخ على لازمه الأوّل، أي الانحراف عن سلوك مسلك التّحقّق القلبيّ بكلمات الله تعالى، وهو مصداق مسلك العبديّة الذي دلّ عليه قوله سبحانه في الآية التي تسبقه: (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (الحديد: 8).

كما سيظهر أثره جليًّا في التّعريض بخطر لازمه الثّاني وهو النّكوص عن مسلك التّلقّي عن الله تعالى، والذي دلّت عليه الآية التي تليه: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ) (الحديد: 25)، وكلا اللاّزمين يُوقِعان في النّفس الخشية من مآلات أسلوب الخطاب الإلهيّ: (أَلَمْ يَأْنِ)[23].

ثمّ يقف الخطاب الإلهيّ مجدّداً عند حدود دلالات مسلك التّلقّي للوحي الإلهيّ، من خلال استهداف محلّ الباعث على الامتثال إلى حاكميّته، ألا وهو مخالفة الهوى. يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (4) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (6) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الصّفّ: 2، 7).

ويجتمع صدر الخطاب الإلهيّ هنا مع نهايته على وقع الاستنكار لمنحى الانحراف عن مسلك تلقّي كلمات الله تعالى، على اعتبار أنّ مخالفة الهوى هو قوام الفعل في أمّة الشّهادة، ولا يتحقّق لها التّخلّق بالوحي الإلهيّ امتثالاً إلاّ من خلال سلوك هذا المسلك، فهو مدار الاستجابة لبلاغات رسالة الله تعالى. قال الآلوسيّ في تفسيره: «... والمعنى: لأيِّ شيءٍ تقُولُون ما لا تفعلُونَهُ من الخيرِ والمعروفِ؟ على أنَّ مدارَ التَّوبيخِ في الحقيقةِ عدمُ فعلِهم، وإنَّمَا وُجِّه إلى قولِهم تنبيهاً على تضاعُفِ معصيتِهم، ببيانِ أنَّ المنكرَ ليسَ تركَ الخيرِ الموعُودِ فقط، بل الوعدَ أيضاً، وقد كَانُوا يحسبُونَه معرُوفاً... واختِيرَ لفظُ المقتِ لأنَّهُ أشدُّ البغضِ وأبلغُهُ»[24].

وههنا تظهر دقّة الخطاب الإلهيّ في استثمار هذه المدارات الإيمانيّة في أرض الواقع، حيث يقول الحقّ تبارك اسمه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التّوبة: 38، 39).

فمن خلال هذا السّياق توضع المدارات الإيمانيّة المتشكّلة آنفا في وعي المتلقّي موضع الاختبار على الحقيقة، وتزداد وطأة اختبارها بالنّظر إلى دلالة قوله تعالى: (اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)، ثمّ بالنّظر إلى دلالة الاستفهام الوارد بعده، والمفسّر لهذه الدّلالة، ثمّ بالنّظر إلى خاتمة الخطاب الإلهيّ بعده، والتي تضمّنت تعريضاً بمآلات النّكوص عن حاكميّة كتاب الله تعالى، ولعلّ أخطرها على الإطلاق مآل الاستبدال، على نحو ما حصل مع أمّة الكلمة بعد أن جعلوا كتاب الله تعالى وراءهم ظهريًّا.

ولهذا المقام في الخطاب وقعه الشّديد على وعي أمّة الشّهادة ولا شكّ، وهي التي تستعدّ للنّهوض بتبعات عالميّة الخطاب القرآنيّ، في ظلّ تحصيل ثمرة هذا الخطاب في النّفس تحقُّقاً، ثمّ تحصيل بلاغات رسالته تخلُّقاً على نحو ما سيحقِّق لهذه الأمّة انبعاثها الشُّهوديّ.

خاتمة:

لقد استهدف الخطاب الإلهيّ بفضل صبغة الفطريّة تشكيل دلالة مفهوم حاكميّة الكتاب وفق منحى شموليٍّ متجاوزٍ مكانيًّا وزمانيًّا، ليتناسب مع عالميّة الخطاب الإلهيّ الذي يجد جذوره في الكينونة الإنسانية، ويتفاعل معها في كافّة مستوياتها، وذلك بالنّظر إلى التّحوّل الجذريّ الذي حصل في العلاقة بين عالم الغيب وعالم الشّهادة، والذي كان له أثره المباشر على التّأسيس لمفهوم الحاكميّة بهذا المنظور.

حيث تضامّت دلالات هذا المفهوم في مركّبٍ واحدٍ، استوعب حركيّة الوجود برمّته، في إطار ناظمٍ شموليٍّ بدلالة مسلكيّ العبديّة والتّلقّي. وبين حدّي هذين المسلكين، تموضع مفهوم حاكميّة كتاب الله تعالى مشكّلاً دلالةً متماسكةً بنيويًّا في أبعادها الفكريّة والوجدانيّة والسّلوكيّة.

وإزاء هذا التّماسك البنيويّ يمكن القول: إنّ الخطاب الإلهيّ في القرآن الكريم قد صاغ مفهوم حاكميّة الكتاب بوصفه "امتثالا لأوامر الله تعالى ونواهيه في مختلف تمثلاتها تحقُّقاً بدلالة مسلك العبديّة، ثمّ تخلُّقًا بدلالة مسلك التّلقّي" وفق نسقٍ معرفيٍّ متفرِّدٍ، سواء من حيث مسارات تشكّله أو من حيث سياقات الخطاب فيه.

كما أنّ تميّز المدارات الإيمانيّة للاستجابة لحاكميّة كتاب الله تعالى في ظلّ التّجربة الإيمانيّة لأمّة الشّهادة، والمرتكزة على دلالتيّ الجاذبيّة الرّوحيّة والامتثال يستهدف تشكيل وعيٍ إيمانيٍّ متجاوزٍ لما كانت عليه أمّة الكلمة من جهة التَّحقُّق بدلالة مسلك العبديّة، ومفارِقٍ له من جهة التَّخلُّق بدلالة مسلك التّلقّي، ويحول بالتّالي دون أن يتّخذ مفهوم حاكميّة الكتاب دلالةً كهنوتيّةً، تحوّله إلى مراسم لاهوتيّةٍ على نحو ما ساد في بني إسرائيل، فدلالته وفق هذه المدارات ترتقي به إلى المصافّ الإيمانيّة ثمّ الكونيّة المكافئة لعالميّة الخطاب الإلهيّ.

وفي ظلّ هذه النّتائج يمكن القول: إنّ تشكُّلَ دلالة إيمانيّة كونيّة متجدِّدة لمفهوم حاكميّة الكتاب رهنٌ بقاعدة كلّيّة مفادها: "أَنْ لا تحقُّق لحاكميّة كتاب الله تعالى في أمّة الشّهادة من جديد إلاّ في ظلّ العودة إلى مسارات تشكّلها التي صاغها القرآن الكريم، وفي ظلّ مداراتها الإيمانيّة التي ارتكزت عليها السّياقات المتنوّعة لخطاب الله عزّ وجلّ فيه".

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم بن عمر البقاعيّ (ت 885 هـ): نظم الدّرر في تناسب الآي والسّور، تصحيح وتعليق وتنقيح: مجموعة من العلماء، دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد، الهند، ابتداء من سنة 1389 هـ- 1969 م.
- إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبيّة، المؤسّسة العربيّة للنّاشرين المتّحدين، صفاقس، تونس، 1986 م.

- الحسين بن محمّد الأصفهانيّ (ت 502 هـ): المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمّد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دت.
- سيّد قطب: في ظلال القرآن، دار الشّروق، القاهرة، مصر ، ط 32: 1423 هـ- 2003م.
- عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطيّ (ت 911 هـ): معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1408 هـ- 1988 م.
- عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276 هـ): تأويل مشكل القرآن، شرح: السّيّد أحمد صقر، دار التّراث، القاهرة، مصر، ط 2: 1393 هـ- 1973 م.
- عليّ بن أحمد الواحديّ (ت 468 هـ): أسباب نزول القرآن، تحقيق ودراسة: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1411 هـ- 1991 م.
- علي بن محمّد البغداديّ الشّهير بالخازن (ت 725 هـ) : لباب التّأويل في معاني التّنزيل، ضبط وتصحيح: عبد السّلام محمّد علي شاهين، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1415 هـ- 1995 م.
- فريد حسن الأنصاريّ: الفطريّة بعثة التّجديد المقبلة- من الحركة الإسلاميّة إلى دعوة الإسلام، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، مصر، ط 2: 1434 هـ- 2013 م.
- مجمع اللغة العربيّة: المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة، مصر، ط 4: 1425 هـ- 2004 م.
- محمّد أبو القاسم حاج حمد: جدليّة الغيب والإنسان والطّبيعة- العالميّة الإسلاميّة الثانيّة، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط 1: 1425 هـ- 2004 م.
- محمّد أبو القاسم حاج حمد: منهجيّة القرآن المعرفيّة، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط 1: 1424 هـ- 2003 م.
- محمّد الطّاهر بن عاشور (ت 1393 هـ): التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس العاصمة، تونس، 1984 م.
- محمّد بن عبد الحقّ بن عطيّة الأندلسيّ (ت 546 هـ): المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1422 هـ- 2001 م.
- محمّد بن عليّ الشّوكانيّ (ت 1250هـ): فتح القدير الجامع بين فنّيّ الرّواية والدّراية من علم التّفسير، مراجعة: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 4: 1428هـ- 2007م.
- محمّد بن محمّد العماديّ المكنّى بأبي السّعود (ت 982 هـ): إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، دت.
- محمّد بن مكرم الإفريقيّ (ت 630 هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، دت.
- محمّد بن يعقوب الفيروزباديّ (ت 817 هـ): بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: عبد العليم الطّحاوي، لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ بالمجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، القاهرة، مصر، 1393 هـ- 1973م.
- محمّد خطّابي: لسانيّات النّصّ- مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثّقافي العربيّ، بيروت، لبنان، ط 1: 1991 م.
- محمود الآلوسيّ (ت 1270 هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، دت.

الهوامش:

[1]- النّاظم الشّموليّ: هو النّسق المتكامل لمنهج تدبّر الخطاب الإلهيّ على مستوى بنيته النّصّيّة والخطابيّة وكذا اللّغويّة التّركيبيّة، ثمّ الوقوف على انعكاس تأثير هذه البنى مجتمعةً على نفسيّة المخاطَب وعلى سلوكه، وهو مصداق تحقّق بلاغات رسالة هذا الخطاب.

[2]- انظر في بيان معاني مادّة (ح ك م): الحسين بن محمّد الشّهير بالرّاغب الأصفهانيّ (ت 502 هـ): المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دت، ص 126 وما بعدها، ومحمّد بن مكرم الإفريقيّ

الشهير بابن منظور (ت 630 هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ج 12/ ص 140 وما بعدها، ومجمع اللغة العربيّة: المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة، مصر، ط 4: 1425 هـ- 2004 م، ص 190 وما بعدها.

3- الزّمخشري (ت 538 هـ): أساس البلاغة، تحقيق محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1419 هـ- 1998 م، ج 1/ ص 484.

4- مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة: المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة، ط 4: 1425 هـ- 2004 م، ص 464، 465.

5- إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبيّة، المؤسّسة العربيّة للنّاشرين المتّحدين، صفاقس، تونس، 1986 م، ص 201.

6- محمّد خطّابي: لسانيّات النّصّ- مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثّقافي العربيّ، بيروت، لبنان، ط 1: 1991 م، ص 56.

[7]- سيّد قطب: في ظلال القرآن، دار الشّروق، القاهرة، مصر ، ط 32: 1423 هـ- 2003م، ج 4/ ص 2346.

[8]- محمّد بن عليّ الشّوكانيّ (ت 1250هـ): فتح القدير الجامع بين فنّيّ الرّواية والدّراية من علم التّفسير، مراجعة: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 4: 1428هـ- 2007م، ص 362.

[9]- علي بن محمّد البغداديّ الشّهير بالخازن (ت 725 هـ) : لباب التّأويل في معاني التّنزيل، ضبط وتصحيح: عبد السّلام محمّد علي شاهين، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1415 هـ- 1995 م، ج 2/ ص 241.

[10]- محمّد بن محمّد العماديّ المكنّى بأبي السّعود (ت 982 هـ): إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، دت، ج 3/ ص 44.

[11]- محمّد بن عبد الحقّ بن عطيّة الأندلسيّ (ت 546 هـ): المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1422 هـ- 2001 م، ج 2/ ص 199.

[12]- انظر: عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276 هـ): تأويل مشكل القرآن، شرح: السّيّد أحمد صقر، دار التّراث، القاهرة، مصر، ط 2: 1393 هـ- 1973 م، ص 479، 480.

[13]- انظر: محمّد بن يعقوب الفيروزباديّ (ت 817 هـ): بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: عبد العليم الطّحاوي، لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ بالمجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، القاهرة، مصر، 1393 هـ- 1973 م، ج 3/ ص 305، 306، وج 4/ ص 147.

[14]- انظر: محمود الآلوسيّ (ت 1270 هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، دت، ج 9/ ص 98.

[15]- سيّد قطب: في ظلال القرآن، (م.س)، ج 3/ ص 1388، وانظر: محمّد بن يعقوب الفيروزباديّ: بصائر ذوي التّمييز، (م.س)، ج 4/ ص 508، والرّاغب الأصفهانيّ (م.س): المفردات في غريب القرآن، ص 468، 469 في بيان دلالة الفعل "تَمَسَّكَ".

[16]- انظر: محمّد بن يعقوب الفيروزباديّ: بصائر ذوي التّمييز، (م.س)، ج 3/ ص 384، 385، والرّاغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، (م.س)، ص 274.

[17]- محمّد الطّاهر بن عاشور (ت 1393 هـ): التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس العاصمة، تونس، 1984 م، ج 1/ ص 744.

[18]- محمّد أبو القاسم حاج حمد: منهجيّة القرآن المعرفيّة، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط 1: 1424 هـ- 2003 م، ص 189.

[19]- انظر: محمّد أبو القاسم حاج حمد: جدليّة الغيب والإنسان والطّبيعة- العالميّة الإسلاميّة الثانيّة، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط 1: 1425 هـ- 2004 م، ص 320، وانظر ص 379 منه.

[20]- فريد حسن الأنصاريّ: الفطريّة بعثة التّجديد المقبلة- من الحركة الإسلاميّة إلى دعوة الإسلام، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، مصر، ط 2: 1434 هـ- 2013 م، ص 106، وانظر ص 107 وما بعدها، ففيها وقفات نفيسة مع منهج الفطريّة.

[21]- فريد حسن الأنصاريّ: الفطريّة بعثة التّجديد المقبلة، (م.س)، ص 107، 108.

[22]- انظر: عليّ بن أحمد الواحديّ (ت 468 هـ): أسباب نزول القرآن، تحقيق ودراسة: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1411 هـ- 1991 م، ص 426، وإبراهيم بن عمر البقاعيّ (ت 885 هـ): نظم الدّرر في تناسب

الآي والسّور، تصحيح وتعليق وتنقيح: مجموعة من العلماء، دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد، الهند، ابتداء من سنة 1389 هـ- 1969 م، ج 19/ ص 278.

[23]- انظر: عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطيّ (ت 911 هـ): معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1408 هـ- 1988 م، ج 3/ ص 424، 425.

[24]- محمود الآلوسيّ: روح المعاني، (م.س)، ج 28/ ص 83، 84، وانظر: عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطيّ: معترك الاقران في إعجاز القرآن، (م.س)، ج 2/ ص 305، والرّاغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، (م.س)، ص 470، في بيان معنى لفظة "مقت".